

ملحمة جليجامش وحوار الحضارات

ناجح المعموري

آه يا روحي لا تطمحي إلى الخلود ، بل استنفذي
حدود الممكن = الشاعر الإغريقي بندار

قرأت " رؤية جديدة في أوديسة العراق القديم " / هل عرف جليجامش أسرار الفضاء ؟ بقلم
د . هشام عبد الستار حلبي في صحيفة الزمان يوم 2004/4/22 وسجلت ملاحظات سريعة
عليه وأخرى جديدة ، تحولتا معاً إلى هذا المقال الذي سيثير عدداً من الملاحظات حول
ملحمة جليجامش ودورها كنص أزلي أول في حوار الحضارات الذي استقر هكذا بعد مقترح
لما قاله صمويل هنتغتون عن صراع الحضارات . هذا النمط من الحوار هو الذي يضع الشرق في
موقعه الجغرافي الثقافي والاقتصادي ، ويمنحه مع غيره من الحضارات فرصة متكافئة ومعترف
بها .

لا أريد مناقشة د. هشام عبد الستار حلبي حول ما تضمنته المقالة، لان عدداً من الباحثين ،
كتبوا عن العلاقة الكامنة في ملحمة جليجامش والفضاء الخارجي، لكنني أريد التنبيه إلى
خطورة بعض المصطلحات المنطوية على آراء ومفاهيم ليست ايجابية وتفوح منها رائحة التبعية
للآخر والقبول به والرضى بالانصهار مع المركزية الغربية والاقتناع بكل ما قالته عن الشرق
الذي هي صنعة وحافظت عليه مثلها أرادت كي يظل تابعاً وهامشياً في الدور الحضاري /
الإنساني ، وكيف تقبل بدورها المحيطي في مجال ثقافي ، نحن أول من ابتكره واشتغل فيه
واقترح ملامحه الفكرية وأسس ثوابته الاجناسية ، وهنا انتقلت إلى الآخر ، بعد ما ظلت زمناً
طويلاً للغاية خاصة أدبية وفنية ميزت الشرق الأدنى القديم وحصرراً العراق القديم ، واعني
بذلك ملحمة جليجامش، النص الأدبي الرائد.

أطلق المرحوم طه باقر على ملحمة جليجامش اسم " اوديسة العراق القديم " ووضع الباحثون
ومؤرخو الأدب الملحمة هذه في قمة الأدب العالمي ، كما أنها أقدم نص ملحمي في أدب
الملاحم البطولي في تاريخ جميع الحضارات وقد دونت في 4000 ق . م وحتماً عاشت زمناً
طويلاً باعتبارها نصاً شفاهاً يقدم بالمناسبات الدينية والاحتفالات الطقوسية . ومعروف بأن

هذه الملحمة ما زالت حتى هذه اللحظة مكتنزة بعناصر الإثارة والاهتمام ، بما تبدى عنها من تركيز على أحلام وطموحات الإنسان وما يريد ، مما جعل حوادثها مثيرة للغاية ، ومع احترامي الكبير للأستاذ طه باقر الذي اعرف علاقته العميقة مع الملحمة وبذل جهداً كبيراً في ترجمتها واستمرار الاشتغال عليها وما زال اسمه مقترباً بها حتى قال د. فوزي رشيد : لو عاد جلجامش الى الحياة لجعل لظه باقر تمثالاً ذهبياً في اكبر ساحة وسط مدينة أوروك .

لكنني أحتفظ على إضفاء اسم الأوديسة عليها ، لان ملحمة جلجامش سبقت ملحمة الأوديسة والإلياذة ، حيث يعتبران أقدم نتاج أدبي لليونان وقد تم تدوينهما في القرن الثامن والسابع ق. م ، أي أنهما متأخران عن الأدب العراقي بخمسة قرون . وتميزت ملحمة جلجامش بقدمها على تاريخ الملاحم الهندية المعروفة بأكثر من ألف عام وكذلك كانت ملحمة جلجامش أقدم من الأدب التوراتي كثيراً . ونحن نعلم بأن أقدم تدوين للتوراة في القرن السادس والخامس ق. م

وبعد ان عرفنا بتاريخية ملحمة جلجامش وأسبقيتها في الإنتاج والتدوين وحتماً يعرف الكل بأن التدوين لا يعني تأريخ إنتاجها ، لأنها مصاغة قبل الكتابة بزمان طويل جداً واحتفظ النشاط الشفاهي بها ، مثلها هي الكثير من النصوص الشفاهية ، ستحضر إلى الذاكرة الأساطير السومرية الخمس والتي اعتمدت عليها البنية الذهنية الأكادية في إنتاج نص ملحمة جلجامش بالصيغة الموجودة بالتداول .

التماثل كبير بين رحلة جلجامش وقصة الأوديسة . فالاثنتان " جلجامش وأوديسة يعودان إلى بلاد كل منهما في النهاية وكلاهما رفضا طلباً من ربه للزواج منها وكل منهما تكلم مع صديقه في عالم الموتى . وكما أن الإلهة نثيس قد حملت آخيل " ايكليس " في الاوديسة فان جلجامش هو ابن الربة ننسون . والعلاقة بين جلجامش وانكيديو تشابه تلك بين باتروكليس وايكليس في الاوديسة . وكما بكى جلجامش على صديقه انكيديو ، فقد بكى ايكليس على باتروكليس . وكانت حالة اوديسة عند رجوعه " متألم المظهر وحزين القلب " تشبه حالة جلجامش لدى عودته . وقد اخبر جلجامش جده البعيد اوتونابشتم بأن سبب حزنه هو موت صديقه الحميم انكيديو ، كذلك اوديسة الذي كان سبب حزنه قدرته على تخليص أصدقائه من الموت ، وكان بوسيدون رب المياه والبحار عند اليونانيين هو الاله الوحيد الذي لم يشعر بعطف على اوديسة وكذلك الإله انليل من بين جميع الإلهة رفض إنقاذ اوتونابشتم من الطوفان . وسار جلجامش لابساً جلد أسد وكذلك كان هرقل " هركليس " يحمل معه على

الدوام جلد أسد . وان رجوع اوديسة دونما هدايا إلى أهله سيكون بلا قيمة وكذلك في ملحمة جلجامش عندما أخبرت زوجة اوتونابشتم بعلمها " أن جلجامش قد أتى الى هنا وهو تعباً ومتألم ماذا ستعطيه حتى يعود لأهله " . وما أن سمع جلجامش منها هذا القول حتى قرب سفينته أكثر إلى الساحل كي يتسلم الهدايا . وهنا افصح اوتونابشتم لجلجامش عن سر النبتة العجيبة في جوف البحر والتي اسمها " رجوع العجوز شاباً " وبذلك تكون خير هدية . وأسوار طروادة من بناء الالهة كما تقرأ في الإلياذة ، وكذلك أسس أوروك وضعها حكماء أسطوريون سبعة .

وكان وصف انكيدو لما حل به الموت والعالم السفلي يشبه تلك في الأوديسة عندما يتكلم اوديس مع اكليليس وآخرين في عالم الأموات " هاديس " ولو أن جلجامش قد صور في الملحمة ظالماً في البداية إلا انه قد حمى مدينته من قوى الطبيعة العنيفة التي رمز إليها في الملحمة بالوحوش . وكان جلجامش وأبطال الإلياذة يعرفون بأنهم سيموتون وان الإلهة قد خلقت فاكليس كان يعرف بأنه سيموت حال دخوله طروادة وهو يعلم بان الإلهة تقرر الآجال ولكنه تصرف بحرية في حياته مثل جلجامش . وهناك صور عدة تصور أعمال هراكليس البطولية تماثل الصور المنسوبة الى جلجامش فلا بد وان كانت ملحمة جلجامش تلقى في قصور ملوك أيونيا في غرب آسيا الصغرى وجزر بحر ايجه ، خاصة وان هناك تراجم للمحملة ثم العثور عليها في اللغتين الحورية والحيثية . فصول ملحمة جلجامش يفسر الكثير من العلاقة القوية بين الملحمة نفسها والتقاليد اليونانية في خلفية هراكليس وما نقرأه في الكتابات المنسوبة لهوميروس وتلك لهسيود وما يرويه نسطور في الإلياذة ، تذكرنا بما اخبر اوتونا بشتم جلجامش عن الطوفان . وان الإيمان بالقدر الواضح في ملحمة جلجامش نرى ما يوازيه في الإلياذة حيث نقرأ قول زيوس " هذا شيء محزن حقاً سار بيدون الذي أحبه كثر من كل الناس قضى عليه القدر أن يقتله باتروكليس " . والاعتقاد بعالم الموت الموضح في ملحمة جلجامش مشابه لما نقرأه في الإلياذة عن ذلك العالم .

أن تشابه قصص الطوفان اليونانية مع قصة الطوفان البابلية التي رواها اوتونابشتم في الملحمة الى جلجامش معروف مما يدل على تأثر الأولى بالثانية . فقد طغى طوفان على نتيجة تهادي البشر في طغيانهم وشروهم وبين اوتونابشتم " في ملحمة جلجامش " بإرشاد الإله آيا وكذلك دبر كاليون بطل الطوفان في كلا القصتين . طيراً لمعرفة توقف الطوفان . وقد رسى الفلك أخيراً على جبل في القصتين . وان سردوري صاحبة الحانة في ملحمة جلجامش مثل سرسي وولدها

كوموس تتبع فلسفة كل واشرب لان هذا هو نصيب الإنسان . وقد نصحت سر دوري
جلجامش حول الطريق الى اتونابشتم وبحر الموت مثل نصح سرسي لاوذيسي عن الطريق الى
هيديس عبر ماء المحيط . وان فم الأنهار في ملحمة جلجامش يقابل ينابيع المحيط عند اليونان .
وان اتونابشتم قد اختبر من بين البشر ليخلد مثل مينليوس الذي اختبر للخلود من بين أبطال
اليونان وأرسل الى الجنان ابلسيته في نهاية الأرض وان يكون زميلاً الى راداما نيوس ذي
الشعر الأحمر . وقد وصفت الجنان الابليسية بكونها : " لا يسقط منها ثلج ولا تهب بها
عواصف عنيفة أو يسقط بها مطر بل أن المحيط يرسل النسيم العليل على الدوام من الناحية
الغربية ليهب بارداً على الناس " وهذا يماثل ما نقرأ في أسطورة سومرية عن ارض دلمون التي
تجعلها قصة الطوفان .

موطن زيوسودا بطل الطوفان (المقابل لاوتونابشتم)

المكان طاهر

ارض دلمون طاهرة

لا ينقع الغراب في دلمون

ولا يطلق طير الاينو صيحة الم طير الايندو

الأسد لا يفترس

الذئب لا ينهش الحمل

والكلب المسحور الذي يفترس العجل غير موجود

الطير لا ينكس رأسه

ومريض العينين يقول أنا لست مريضاً بالعينين

أن مصارعة نجمايا وجلجامش لها ما يماثلها في الأدب اليوناني متمثلة في منازلة برسيوس
للغورغون ثم كثرة منازلات هركليس ومثل القديس جورج للثنين . ومن الجدير بالذكر أن في
الأساطير السومرية أخباراً عن منازلات بين ابنة والهة مثل منازلة نينورتا مع التين كور الذي
غلبه وقتله . وكذلك منازلة الربة انانا مع التين كور ومنازلة الاله انكي ودحره التين كور .

ذكر بارحوشا المؤرخ البابلي من أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الثالث ق . م
رسم اتونابشتم بهيئة خيسو ثروس وقال بان الإله كرونوس افصح له عن نفسه واعلمه بقرب
حلول الطوفان واخبره أن يدفن وثائق معينة في سيار حتى لا يضيع تراث البلد (الكلمة) وان
يبني فلماً بأبعاد معينة يحمل بها عند حلول الطوفان احملة واقرب أصدقائه وزوج من المخلوقات

الأرضية الحية " ذكر وأنثى " وفي النهاية اخبره صوت الهي بتحول بطل الطوفان وزوجته وملاحه وان يعود باقي أهل السفينة وحدهم الى بابل كما هو مقرر . وان يخرجوا الوثائق المدفونة في سيار وينشرونها بين الناس وكون الأرض التي هم فيها " حيث رست السفينة " هي أرمينية وعندما سمع أهل الفلك كلامه قدموا الأضاحي وراحوا الى بابل سيراً على الأقدام . وان ذكر باحث " بيل ريتشو " لارمينية حل مسألة جبل نصير وموقعه . أما العنصر الجديد الذي ادخله هو الصوت الإلهي لتغطية تعدد الإلهة في قصة الطوفان البابلي . وجعل جزء أهل الفلك خيسوثروس وزوجته وملاحه " الخلود الفوري وهو تأثير يوناني وأكد على بابل بدلاً عن شروباك التي ذكرتها قصة الطوفان البابلية .

أن مصارعة نجمابا وجلجامش لها ما يماثلها في الأدب اليوناني متمثلة في منازلة برسيوس للغورغون ثم كثرة منازلات هركليس وقتل القديس جورج للتين . ومن الجدير بالذكر أن في الأساطير السومرية أخباراً عن منازلات بين أتنه والهة مثل منازلة الإله تنورتا مع التين كور . أن العلاقة بين ملحمة جلجامش وبين النصوص الأخرى (مثل الأوديسة، التوراة وبعض النصوص القرآنية) الشبيهة بها أو التي أخذت عنها هي علاقة محاكاة أو تحريف للنص الأصلي وادعائها حق إنتاجه والانفراد بامتلاكه .

وعلاقة جلجامش بتلك النصوص ليست مجرد عملية " فهم القارئ للعلاقات القائمة بين عمل ما وبين أعمال أخرى سبقته أو ألحقته كما يقول ريفاتير . هذه العلاقة ليست علاقة متبادلة بسبب بسيط جداً، هو أن ملحمة جلجامش لم تأخذ من تلك النصوص أو تتأثر بها ، وهذا بديهي ويبدو من السذاجة بمكان مجرد الكلام على ذلك ! أننا لا نعرف أعمالاً مكتملة سبقت ملحمة جلجامش تأثرت بها هذه الأخيرة فكل ما وجد قبلها، حول الموضوع الذي نتحدث فيه عنه طبعاً ، كان عبارة عن شذرات لا تشكل في أي حال من الأحوال أيضاً تأسيساً ، مشرعاً ، أو نصاً مؤسساً قامت عليه أو استطاعت منه النصوص اللاحقة في آداب الحضارات الأخرى ، أو الشعوب الأخرى .

هذه النصوص انطلقت من جلجامش ، أو لنقلها صراحة سرقة وادعي مؤلفوها أنها إنتاج حضاراتهم، سنتبين منها النصوص القرآنية التي ظلت أمينة وسأقت حوادث التاريخ وأرجعتها لأصحابها. إذا كان مفهوم النص الجمعي " النصوص المتداخلة " يفترض التبادل والتداخل بين النصوص فإن النص المؤسس لا ينطوي على مثل هذا المفهوم . وحينما نقول بوجود نص ثان

فان ذلك يعني ببساطة ، وجود نص أول . والثاني لا وجود له في حال غياب الأول . تماماً كالعلاقة القائمة بين الأرقام في متسلسلة حسابية .

قال العالم طه باقر : لعل خير ما يكشف لنا عن أثرها الكبير في عقول أبناء الحضارات القديمة المدى الواسع الذي انتشرت فيه في العالم القديم . فبالنسبة الى سكان العراق الأقدمين لم يقتصر تداولها على سكان القسم الجنوبي والأوسط من العراق . وهو القسم الذي عرف ببلاد " سومر وأكد " بل انتشرت أيضا الى القسم الشمالي ، الى بلاد " آشور " فقد وجدت نسخ كثيرة لها في حواضر العراق القديم في ادوار ازدهار الحضارة البابلية في ما يعرف بالعهد البابلي القديم " الألف الثاني ق . م " أما بالنسبة الى آشور فالواقع إن آخر نشرة لها كاملة وصلت إلينا وقد وجدت نصوصها في خزانة كتب الملك الآشوري " آشور بانيبال الشهيرة . أما بالنسبة الى مراكز الحضارات القديمة . فقد وجدت نسخ كثيرة من أجزاءها في أقاليم نائية من الأناضول ، موطن الحضارة الحثية ، وقد دوت بعض هذه النصوص باللغة البابلية القديمة ، كما وجدت لها ترجمات الى اللغتين الحثية والهورية . وحديثاً تم اكتشاف مثير لنسخة من بعض فصولها في إحدى مدن فلسطين القديمة وهي مدينة " مجدو " المشهورة في التوراة ويرجع زمن هذا النص الى حدود القرن الرابع عشر ق . م ، وهذا واحد من الأدلة الكثيرة على الصلة بين حوادث الملحمة وما جاء في المآثر العبرانية ولاسيما حادثة الطوفان . ولعل اغرب ما وجده المنقبون حديثاً في الموضع الأثري المعروف باسم سلطان تبة في جنوبي تركيا ، بالقرب من حران ، فقد جاءت تلك الرسالة على لسان البطل جلجامش معنونة الى احد الملوك القدماء يطلب منه جلجامش إرسال أحجار كريمة ليصنع منها تعويذه لصاحبه " انكيبدو " لقد أثرت هذه الملحمة العتيدة كذلك في آداب الحضارات القديمة وقصصها وملاحمها بطرق غير مباشرة أي عن طريق التأثير بحوادث الملحمة وقصصها، وعلى رأسها حادثة الطوفان الشهيرة التي شغلت ابرز فصل في الملحمة . والشبه العظيم بين روايات الطوفان واضح جداً وأكثرها وضوحاً ما جاء في التوراة .

والذي نعتقده بصدد هذا الطوفان - كما قل طه باقر انه كان بالأصل حدثاً تاريخياً واقعياً حدث في طيات الماضي البعيد ، وكان من جسامته التأثير وفداحته انه ترك أثراً بليغاً في عقول الأجيال المختلفة فتناقلته الشفوية وشوّهت تفاصيله الواقعية . ونظراً للتشابه الكبير بين رواية الطوفان في الملحمة وملحمة " اتراسيس " وبين رواية التوراة فأنتنا نعتقد أنهما ترجعان الى نفس الحادثة . وان هذه الحادثة وقعت في العراق القديم ، لا سيما في القسم الجنوبي منه . أي

لسهل الرسوبي ، وان زمنها يرجع على اغلب الاحتمالات الى أواخر ما يسمى في تاريخ حضارة وادي الرافدين بمصطلح العصر الحجري المعدني ، أي قبل بداية الحضارة السومرية في أوائل العصر المسمى بعصر فجر السلالات (أواخر الألف الرابع ق م) ولعل مما له علاقة بهذا الطوفان آثار الترسبات الغرينية التي وجدت وهي تفصل بين دوري ما يسمى بـ " جمدة نصر " وبين أوائل عصر فجر السلالات ، في جملة مدن قديمة مثل " كيش ، تل الأحمر الآن " والوركاء وشروباك " حارة الآن وكانت المدينة الأخيرة كما جاء في الملحمة موطن " نوح " الطوفان البابلي " اوتونابشتم " كما ذكر في أثبات الملوك السومريين من المدن الخمس التي حكمت فيها سلالات ما قبل الطوفان . أما سبب الطوفان فلا يعسر على المرء إدراكه في ارض مثل السهل الرسوبي من العراق الذي كان معرضاً في جميع عهود التاريخ الى خطر الفيضانات .

انتقل اسم البطل جلجامش الى الآداب القديمة ، أو أن أعماله نسبت الى أبطال الأمم الأخرى مثل " هرقل " و " آخيل " والاسكندر ذي القرنين والبطل " اوديسيوس " في الاوديسة . تستند أسس قصص هرقل بالدرجة الأولى الى الأصول المستقاة من ملحمة جلجامش والتي وصلت الى بلاد اليونان عن طريق الفينيقيين، فكلا البطلين من أصل الهي ، وكلاهما اتخذ صاحباً وصديقاً حميماً ، انكيدو بالنسبة لجلجامش و" يوليوس " بالنسبة لهرقل وكان السبب في حصول الكوارث كل من الآلهة عشتار و" دينيريا " أو الإلهة " هيرا " بالنسبة الى هرقل . وكلاهما قتل الأسود وتغلب على الثيران السماوية المقدسة ، ووجد هرقل العشب السحري للخلود كما فعل جلجامش وراء هرقل " جزيرة الموت " كما أبحر جلجامش عبر بحر الموت . ومثل هرقل قتل الأسود الضارية واكتسى بجلودها ، الى غير ذلك من نقاط الشبه الكثيرة . ويرى الباحث " روبرت كريفز " أن هوميروس استقى الكثير من الحوادث من ملحمة جلجامش بالنسبة الى احد أبطال الإلياذة الشهيرة " آخيل حيث يضاهي صاحب آخيل المسمى " بتروكلوس " .

" انكيدو صاحب جلجامش ، وأم آخيل الإلهة " ثيتس " تضاهي الآلهة البابلية " تنسون " أم جلجامش ولا بد من الإشارة الى أسطورة نشد ان الاسكندر للخلود في نبع ماء كائن في بحر الظلمات ، مما يضاهي ما جاء بالملحمة في بحث جلجامش عن نبات الخلود

لا يمكن لأي باحث إنكار التأثير الواضح بالملحمة من قبل الكهنة الذين كتبوا التوراة عبر مراحل عديدة وما يؤكد هذا الجانب العثور على نص من الملحمة في مدينة مجدو المهمة توراتياً ، ليس هذا فقط وإنما السبب الذي حصل مرتين ووجود بعض من أنبياء إسرائيل في بابل

والتعرف تفصيلياً على العقائد والطقوس والنصوص البابلية ، هذا بالإضافة الى أن الثقافة العراقية والديانات القديمة منفتحة على سر الآخر وراضية بمجاورته ومحاورته ، كذلك ما نثيره التنوعات الثقافية والدينية من دهشة لدى الآخر والرضا بضرورة الاستفادة منها لكننا يجب ان نشير الى أن الكهنة استفادوا كثيراً وضيعوا آثار الاستفادة والوظائف الجديدة للنصوص العراقية ، الكثير من الباحثين الغربيين أكدوا على الحوار الثنائي بين العراق القديم والتوراة وقال الآخر بان الكهنة سرقوا الإرث العراقي وتصرفوا به . وقال العالم الفرنسي المشهور جان بوتيريو بان التوراة أعادت إنتاج ملحمة جلجامش . ودرست أنا العلاقة الثنائية بين الأساطير والأدب والعقائد والطقوس العراقية وبين التوراة في عدد من الدراسات بالإمكان العودة لها والاطلاع حجم التبادل بين الجانبين ، وكما هو مستوى ونوع التأثير ومن تلك الدراسات :

الأسطورة والتوراة / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت 2001.

موسى وأساطير الشرق / لدار الأهلية / عمان / 2001 .

التوراة السياسي / الدار الأهلية / عمان / 2002.

أقنعة التوراة / الدار الأهلية / عمان / 2002.

تأويل النص / اسطورة نبات اللقاح / عقائد الانبعاث الكنعاني / دار المدى / 2008 دمشق .

ملحمة جلجامش والتوراة / المدى / دمشق / 2009.

وتوصلت عبر البحث المقارن بأن الكهنة الذين كتبوا التوراة اخذوا من العراق القديم كثيراً ، حتى أرميا تسلل الى المراثي العراقية المشهورة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر " رثاء أور " الواضح تماماً في مرثية ارميا بنائياً ، لكن الدرس الاستشراقي تجاهل كلياً التأثير الواضح والمتبدّي جلياً بالأسفار التوراتية ، ولعل سفر التكوين أكثر الأسفار سطواً وليس تناصاً أو تأثيراً وأتذكر رأياً شهيراً للمؤرخ جاك بيرك بأن اليهودية فضله من الحضارة المصرية القديمة . ومع صعوبة إنكار الدور الجزيري في الحضارات الأخرى اعتبر الاستشراق والمركزية الغربية بأن التوراة هي المأثرة الثقافية الوحيدة لدى الغرب .

على الرغم من الدور البارز الذي لعبه علماء الآثار في التنقيب عن أصول الحضارة العراقية ، وهو دور معروف ومشهود ، لكنهم لم يقدموا قراءات كافية عن العقائد / الممارسات الدينية الأخرى / الأساطير / الأجناس الأخرى ، تميز جهدهم بالإيجاز والإبتار وترجمة أجزاء من النص وليس كله ، ولولا الدور البارز الذي قام به قاسم الشواف في ترجمة الأدب العراقي

القديم لما كنا قد توصلنا الى النتائج البحثية المهمة . وأعتقد بأن العالم الآخر لا يريد إتاحة فرصة متكاملة لنا عند القراءة ، وإنما يتركنا وسط فوضى لا تفضي نحو قراءة متكاملة . هذا بالإضافة الى أن المفكرين والفلاسفة تجاهلوا كلياً الإرث العراقي في دراساتهم المهمة ومثلما حصل مع هيغل في موسوعته الجمالية التي لم يرد فيها ولو إشارة واحدة للملاحم العراقية أو الفن والشعر العراقي . تعامل هيغل مع التاريخ باعتباره وعي للحرية وقدرة الذات على ممارسة فعل نقدي للمحيط والمجاور ، فإنه استعان به جيداً وقدم تصورات المؤسسة للجماليات وصاغت أولياته ، ولم يكن التاريخ ماضياً مجرداً ، بل هو تراكم من الأساطير / الآداب / العقائد / الطقوس / الفنون ... الخ ومع كل ذلك فإن إصراره على تجاهل دور الحضارات المؤسسة لم يشر للملاحم الأولى - مثل ملحمة جلجامش - التي دونت قبل أكثر من ألف سنة من تدوين الملاحم الهندية .

وأغفل تماماً الأساطير العراقية التي صاغت وبلورت مكونات مبكرة للآلية التي تعامل معها الإنسان العراقي القديم مع الحياة / السلطة / دينياً وسياسياً ، لكنه بالمقابل كرس العديد من الأساطير والعقائد في اقتراح جماليات الآخر من خلال الفنون الهندية والفارسية ، ولا أعتقد بأن الهامش - كما اقترح الآخر - حتماً سيأخذ المبادرة ويحترق الحصار الثقافي ويتبدى قادراً على التعامل مع تاريخه الثقافي والحضاري ، لكننا ندرك بأن مثل هذه المشاريع الخطيرة لا بد من وجود قبول بالآخر وضرورة الحاجة لجهوده العلمية ، لأن العمل في مجال التاريخ والحضارة محكوم بصفته الجمعية وليس الفردية . وليس عيباً الإعلان عن ضرورات الحوار مع الآخر / الغرب ، لأننا الشرق - نحوز اكتمالاً بالتجاور معهم ونمنح الهوية / الذات / الأنا فرصة التبلور والوضوح .

ظل الموقف الهيغلي ميالاً للآخر، متعاملاً مع الشعوب الهندو-أوروبية بوصفها شعوباً أكثر تحضراً واستعداداً للتقدم ، لأن مقياسه لذلك هو قدرة الشعب - أي شعب - على اختراع أبجديته التي هي فاصلة حاسمة بين التقدم والتخلف ، وتناسى هيغل أيضاً بأن الحضارات الشرقية أسبق من غيرها ، العراقية / السورية / المصرية ، في اختراع لغتها الصورية / الرمزية ، وهذه اللغة هي حاضنتها الأولى في تحديد الأطر الرمزية للتداول وتوظيفها لمصالح اجتماعية / سياسية / دينية / اقتصادية ، وتحول الرموز في هذه المرحلة الحضارية ، التي لا تستطيع اقتراح ضابط تاريخي محدد لها الى إنتاج معلوم للبناء التحتي ، هذا هو مجال اللغة الصورية / الرمزية التي عرفتها مدينة أوروك في سومر بوقت مبكر جداً وتم اختراع لغة كتابية ولأول مرة في تاريخ

الحضارات وهذا هو الشرط الذي اعتبره هيغل مقياساً للتحضر والاستعداد للتقدم في كتابة فلسفة التاريخ . ولا يستطيع أحد إنكار اختراع الأبجدية في إيبلا في مدينة اللاذقية في الوقت الذي كان العالم فيه يغط وسط ظلام كامل .

سنحاول قراءة الموقف الفلسفي للآخر وكيف تعامل مع منجزه واعتبره العتبة الأولى في تاريخ الحضارة الإنسانية واعتمد عليه في اقتراح وبلورة مفهوم فلسفي حول العلاقة الثنائية بين الإنسان وماضيه وكيف استطاع الآخر التخلص من عقدة الظلام ، ونجح في توظيف العقل في قراءة منجزاته الكثيرة والاحتفاظ بما هو لائق ومقبول ودفن للأبد كل ما هو معرقل لحركة التنوير وبناء الحياة الجديدة . وتكشف مصادر الفلسفة ذلك بوضوح تام .

كان الغربيون يؤكّدون أن أوديب هو أول فرد حاول أن يخرج من حصار الأسطورة والملحمة ، وليستقل بنفسه عن روح الجماعة ويحررها من نسج تقاليدها وأساطيرها وكهنوتها ، وإذا كانوا يفخرون بأن سقراط هو أول من طبق حكمة معبد دلفي والحكماء السبعة " اعرف نفسك " بصورة أخلاقية عقلية ، وأول من تمثلت فيه الذاتية الوجودية الحقبة بكل تمزقها بين النهائي واللا نهائي ، وبين المحدود والمطلق " على نحو ما صورها كيركغارد " في رسالته المبكرة عن مفهوم الدعابة مع التركيز المستمر على سقراط ، فمن حق أبناء حضارة هذه المنطقة من العالم إن يردوا عليهم بأن جلعاش قد سبق أوديب في إصراره على فرديته مهما كلفه ذلك من الاغتراب عن وطنه وشعبه، والمغامرة في اقتحام المخاطر والمهالك، وأنه لا يقل عن سقراط في " الذاتية " الفردية التي قادته على الطريق الوعر ، طريق معرفة النفس وحدودها ومكانها من العالم وعلاقتها بالآلهة والبشر وطريق البحث الشائك عن معنى الحياة والموت والخلود ... والدليل على هذا أن ملحمته التي ترجع الى الألف الثالث ق . م ما زالت تحرك عقولنا وقلوبنا في أواخر القرن العشرين وما فتئت نثيرنا ببساطتها وعفويتها ، دون أن يقلل من استمتاعنا بها ، أسلوب الاستطراد والتكرار والتقرير والارتجال الذي يطبع الأدب الشعبي والقصصي الشعبي بوجه عام.

انتقد بعض فلاسفة الغرب (مثل فيلسوفي مدرسة فرانكفورت ومؤسسي النظرية النقدية الجدلية وهما ماكس هور كهيمر وتيودور ادورنو في كتابهما المشترك عن جدل التنوير الذي صدر عام 1947) انتقاداً حركة التنوير العقلي الأوربي، وأكدوا أن التنوير ظل طوال تاريخه الطويل متداخلاً مع الأسطورة التي كان ينتزع نفسه منها لكي يرتد إليها من جديد بصورة أبشع (كما حدث للعقل الذي سقط في اللا عقلانية المروعة مع كارثة قيام الأسطورية النازية

وتحطمها) والمعروف أن التنوير الأوربي قد بلغ ذروته في القرنين السابع عشر والثامن عشر وأن أقطابه قد أكدوا سلطة العقل النقدي الذي تقاس عليه كل سلطة أخرى بما في ذلك سلطة التراث الديني ، وعرفه كانط - رأس المثالية الألمانية الحديثة - بأنه خروج الإنسان من الوصاية وبلوغه مرحلة الرشد ، أي مرحلة معرفة الذات والتحرر من الخرافة والإقطاع والتعصب ، والاتجاه - على هدى النزعة الإنسانية والفلسفة العقلانية وتطور العلوم الطبيعية - الى توحيد البشرية القاحلة تحت لواء التسامح والتقدم والاستنارة . والذي يهمننا في هذا المقام أن الفيلسوفين ارجعا التنوير الى جذوره الأولى في التاريخ الغربي ، وزعما أن " أوديسيوس " بطل ملحمة الأوديسة لهوميروس - أول مستنير أوربي استطاع بخبثه وذكائه التخلص من سحر الأسطورة ومن كيد بعض الآلهة والعمالقة له ولرفاقه في رحلته الخطرة . وبصرف النظر عن مدى صحة هذا الرأي ، وعن تأرجح التنوير الغربي منذ ذلك الحين بين التقدم والتراجع . والحقيقة أن جليجامش كان أسبق الى التنوير من اوديسيوس بألف وخمسمائة عام على الأقل ... فقد كانت مغامراته تحدياً مستمراً للأساطير المسؤولة الى حد كبير عن تألهه وجبروته واستعباده لشعبه ولهائه المضني وراء حلم الخلود المستحيل . وظل يخرج من أساطيره وأحلامه بالتدريج ويتحول عنها خطوة بعد خطوة ، حتى يئس منها بعد ضياع نبتة الخلود من يده وانخراطه في البكاء على تعاسته وانهيائه وانكساره ، ثم تطهر من تلك الأساطير والأحلام مع عودته الى مسقط رأسه في أوروك ، وعزمه الذي نستشفه من فرحته الغامرة برؤية سورها وأبراجها من بعيد ، وعلى وضع يده في يد شعبه لتحقيق الخلود الوحيد المتاح للبشر أثناء حياتهم المتناهية على الأرض ، وهو كما قلت بناء الحضارة وإيثار ما ينفع الناس ويمكث في الأرض ، على الشهرة الكاذبة والتسلط الأناني والمجد الشخصي الزائف ، ومع ذلك فربما ينظر الى القارئ نظرة المتشكك الساخر وهو يسأل : أين أوصلهم التنوير الذي بدأ من أوديسيوس؟ وإلى أين وصلنا بالتنوير الذي بدأه جليجامش؟

قال د. عبد الغفار مكاوي بإمكانية اعتبار جليجامش صورة مبكرة جداً من صور الرواية " التربوية " والتعليمية التي ازدهرت في الأدب العربي منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وهي روايات تتابع تطور البطل في معرفته بنفسه وبالعالم والمجتمع وتحوله من الاغتراب عن الذات الى الانتماء إليها ، ومن التبدد والضياع الى معرفة النفس وتحديد دورها وواجبها في العالم والواقع .

يمكن أن نسأل أنفسنا : ألا يمكن أن يكون رفض جليجامش لكأس اللحظة واللذة العابرة من يد ساقية الحان سيدوري ، ثم ثورته على الحياة الحاملة التي يعيشها جده " الخالد " أوتونابشتم ، نوعاً من رفض الحياة بلا خلود ، والثورة على الخلود الممل بلا حياة ؟ أي نوعاً من الاقتراب من الوعي بلحظة الخلود أو اللحظة الخالدة .

قال د. عبد الغفار مكاوي : إنني أتصور جليجامش في صورة النموذج الأول أو النمط الأصلي الكامن في أغوار اللاوعي الجمعي للمستبد الشرقي بوجه عام والعربي / السامي بوجه أخص . تغلغل هذا النموذج في أقدم طبقات الوعي كالعنكبوت أو الإخطبوط الذي يلتف حول نواته منذ أقدم العصور ، استقر فيه وتمكن منه وأقام عرشه المرعب ، وراح يحدده بمختلف وسائل القمع والتخويف والتعذيب والإرهاب التي تحدث كذلك أشكالها ونظمها وفنونها عبر العصور .

بعد أن عرفنا تاريخية ملحمة جليجامش وأسبقيتها بالإنتاج والتدوين ، وحجم تأثيرها ونوعه على الشعوب الأخرى في ملامحهم وآدابهم ، تأكد لنا ومن قبل لعدد غير قليل من العلماء والمفكرين الغربيين من أن " ملحمة جليجامش نص أول ، وهي النص المؤسس الذي انطلقت منه كل ملاحم العالم ، وهي المركز الحيوي ، والملاحم الأخرى محيطها . لذا اعتقد بان ما أطلقه الأستاذ طه باقر من أن ملحمة جليجامش اوديسة العراق القديم متأت من دهشة الأستاذ طه باقر بما أطلقه الأخر حول الملحمة ، وأنا واثق بأنه ما كان يعرف بشكل دقيق ماذا تعني هذه المفردة ولماذا أطلقها الأخر؟ أن هذه المفردة البسيطة خطيرة ، وهكذا يندس الأخر دون أن يلفت الانتباه ، لكن تأثيرات ذلك حاضرة وبقية للأبد . ولان الأخر يعرف ويدرك جيداً بأن ملحمة جليجامش أول نص أدبي في التاريخ ، لكنه وجد صعوبة بالغة بالاعتراف ، ومنحها - ملحمة جليجامش - اسم الملحمة الإغريقية ، بمعنى أنها ملحمة جليجامش لاحقاً ، حتى لا يخرب أهم تصورات المركزية الغربية الخاصة بالتوراة والتي اعتبرها الغرب أهم ماثرة في تاريخه القديم والحديث .

نحن ندرك بان المؤسسات الغربية الكثيرة قد تمكنت من انجاز برامجها ومشاريعها المستقبلية في علاقتها مع الشرق ، اعتماداً على تراث الاستشراق الضخم ، وتعاملت معه باعتباره اختراعاً خاصاً به ، بذل من اجله كثيراً من الجهود والأموال وهو التراث الثقافي في الاستشراق . قاعدته الثقافية المساعدة له في استراتيجيته مع الشرق في المجالات السياسية والعلاقات الثقافية والاقتصادية . أن الغرب يطفو على بحر من المعلومات والوثائق عن الشرق وان كان منها ما هو

نمطي ومحكوم بالموقف الغربي عن الشرق وتحدياته للتمثيل الذي ظهر فيه الشرق . ولكني أجد في إطلاق الاوديسة على ملحمة جلجامش اخطر تخيلاته في ابتكار الإساءة والقسوة والإخضاع بالإضافة للإزاحة للشرق وللعراق حصراً من خصائصه بواسطة مفردة تبدو سهلة وبسيطة وإيجابية بالنسبة للآخر . من غير المنطقي والموضوعي أن تنتسب ملحمة جلجامش الى الاوديسة على الرغم من إعجابنا بها والتعامل معها نصاً مبكراً كاشفاً عن اهمية التراث الإنساني في الخلاص . وارى في الذي وقع به طه باقر قبولاً بأوهام الآخر ومساعيه للعب وسط الظلام ويكفي الملحمة بأن مؤتمر الاشوريات المنعقد في باريس عام 1958، أحصى عدد البحوث والدراسات عن ملحمة جلجامش منذ لحظة انعقاده وحتى الآن بـ 299 مرجعاً وبالإمكان الإشارة لعدد الترجمات التي ظهرت لها في العالم :

الألمانية 13 ترجمة . الانجليزية 7 ترجمات الايطالية : ترجمتان

التشيكية : ترجمة واحدة . الجورجية : ترجمة واحدة . الروسية : ترجمتان السويدية : ترجمة واحدة . العبرية : ترجمة واحدة . الفرنسية : 4 ترجمات الفنلندية : 3 ترجمات . الهولندية : 3 ترجمات . أخيراً يناسب الملحمة إلا اقتران جلجامش بها ، وهي كافية للدلالة على قدرة الحضارة العراقية على إنتاج الأدبي والرفيع وأيضاً التأثير في كل آداب العالم .

المصادر:

- * د. سامي سعيد الأحمد / العراق القديم ج1/ بغداد 1978 ص 238 - 243 .
- * د. سامي سعيد الأحمد / كلكامش / بغداد / 1990 ص 89- 103
- * د. قاسم مقداد / هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحمي / جلعامش / دار الشوال / دمشق ص 92 - 93.
- * د. عبد الغفار مكاوي / المشروع القومي للترجمة العدد 1268.
- * ناجح المعموري / القرابات المتخيلة / دار تموز / دمشق 2012.
- * ناجح المعموري / ملحمة جلعامش والتوراة / المدى / دمشق / 2009.
- * طه باقر / ملحمة جلعامش / بغداد / 1964 .
- * د. نائل حنون / ملحمة جلعامش / دار الخليف / دمشق / 2006.

